الفرنسيون فى مصر

ثم جاء نابليون بونابرت إلى مصر على رأس حملته الشهورة عام ١٧٩٨ م وكان موفقاً فى بادىء الأمر فقضى على شجاعة المماليك ولكنه لم يقض على وطنية المصريين الذين ظلوا يحاربونه ويقاطعونه ويفتنون فى مقاتلة رجاله فى حرب العصابات فى شوارع القاهرة ومديريات الوجهين البحرى والقبلى حتى ضاقت بهم المشانق ذرعاً ـ وعن ذلك يقول مؤرخ الحملة الفرنسية الأستاذ عبدالرحمن الرافعى بك فى كتابه (الحركة القومية)

« بدأت هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد وظهرت الأمة بشخصية جديدة وروح فتية وعزيمة قوية كونتها الحوادث والشدائد وصقلتها التجارب والآلام . كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى وتطور فى الحياة القومية . رأت الأمة خلالها من الحوادث والانقلابات مافتح أعينها وهز أعصابها واستثار فيها روح التطلع إلى المجد والعلا . رأت نابليون بونابرت يخطب ودها ويشيد بعظمتها ويتملق كبرياءها القومى ويتغنى بماضيها ويعلن حقها فى أن تحكم نفسها بنفسها

ثارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك ـ قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش ورأت خلاصة علماء فرنسا وأطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وفلسفتهم وحضارتهم وتجاربهم . رأت علوماً وأفكاراً جديدة ومنشآت ونظما حديثة رأت « ديوانا » مؤلفاً من صفوة أبنائها بعد أن كان الديوان القديم مقصوراً على المماليك وأيقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية ـ تلك الروح التى تنهض بالأخلاق وترقى الأفكار وتفتق الأذهان وتنير البصائر وتغرس الفضائل فى النفوس ـ وأخذ ترادف

الحوادث فى خلال تلك السنوات الثلاث يمزق أستار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط ـ فلا غرو إن ظهرت الأمة المصرية العريقة من الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولدتها الحوادث ـ وأن تقتحم ميدان النضال السياسى بروح معنوية جديدة تختلف كثيراً عن حالتها القديمة . وكذلك الأمم المستعدة للرقى تتطور نفسيتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات . وهناك يظهر مبلغ استعداد كل أمة للرقى ومقدار ماهو كامن فى قرارة نفسها من المواهب الدفينة . فالأمة المصرية التى ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستعباد لم تفقد مواهبها القديمة التى ورثتها عن المدنيات المتعاقبة . بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد . يعلوها الصدأ . فما أن صدمتها الحملة الفرنسية حتى أخذت تبدو للعيان كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها فى لهب النار . ونهضت الأمة فى وجه الاحتلال الأجنبى تحمل بين جنبيها قوة حيوية كبيرة ظهر الشعب المصرى فى الميدان قوياً فتياً لايمل الجهاد ولا ينكص على الأعقاب وما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه فى وجه العوامل المثبطة والقوات المتألبة عليه . وإذا تتبعت التقلبات التى أعقبت جلاء الفرنسيين رأيت العامل القوى ذا أثر فعال فى سير الحوادث وتطورها . فهذا العامل الوحيد الذى تمخضت عنه المقاومة المستمرة فى عهد الحملة الفرنسية أخذ ينمو ويترعرع ويشتد ساعده . وأبى أن يعود إلى نظام الحكم القديم أو أن يكون مطية لأهواء الدول الطامعة فى وادى النيل . وجعل يتطلع إلى نظام للحكم أرقى من النظم التى رزحت تحتها البلاد السنين الطوال»

كانت هذه قوة الشعب لأنه لم يكن لمصر فى ذلك الحين جيش وطنى